المحاضرة (08)

النقد السيميائي:

- **السيميائيات**

1- المصطلح والمفهوم:

تعد السيميولوجيا (Sémiologie) أو السيميائية (Sémiotique) علما موضوعه دراسة العلامات، والعلامة هي كل شيء يحل محل شيء آخر ويدل عليه، سواء كانت علامة لفظية أم علامة غير لفظية، طبيعية أم اصطناعية[1]، لكن الفارق بينهما يرتبط بوظائف الدلالات، فيرى فرديناند دوسوسير (F.DeSaussure) ، وهو صاحب الاتجاه الأول، ومن معه من أتباع المدرسة الأوروبية، أن الوظيفة الاجتماعية هي جوهر الدلالات التي تراهن السيميولوجيا عليها[2]؛ أي دراسة أنساق العلامات ضمن الحياة الاجتماعية، فمن جهة أولى، تركز على وصف مختلف الأنساق العلامية، ثم هي تركز من جهة ثانية على وظائفها، لذا مشروعه الذي تنبأ به سيكون جزءا من علم النفس العام، وسيدرس كل العلامات الدالة التي لا تدرس اللسانيات إلا اللفظية منها حيث تعنى أساسا باللسان، وستكون اللسانيات بذلك ضمن علم أشمل هو السيميولوجيا[3]، ليطرح بهذا إشكالا مرتبطا بعلاقة السيميولوجيا باللغة، فلئن كانت اللغة نسقا سيميولوجيا، فإنه من الأهمية بحيث يغدو قادرا على أن يطغى على السيميولوجيا نفسها، لأن كل الأنظمة العلامية تمر عبر اللغة، وهذا ما دعا بارت (BARTHES) إلى اعتبار السيميائية جزءا من اللسانيات بدل أن تكون هذه جزءا من تلك.[4]

في حين يرى الأمريكي تشارلز سندرس بورس (CH.S.Peirce)، الذي عاصر فترة دي سوسير الزمنية، أن وظيفة الدلالات المنطقية، هي النقطة التي تسعى السيميوطيقيا إلى رصدها[5]، ارتبط مشروعه السيميائي بكتابه "كتاب حول العلامة" وهو عبارة عن محاضرات له جمعت بعد وفاته، حيث أرسى قواعدها منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهذا جعلها مناط دراسة التجربة الإنسانية عامة، منطلقا بالأساس من اعتبارها محرك باقي العلوم الأخرى، سواء كانت علوما إنسانية أم غير ذلك، وبورس إذ يراها كذلك، ينطلق من إبدالات نظرية أملتها التخصصات المتعددة التي بنى عليها نموذجه النظري السيميائي (الرياضيات والمنطق والفيزياء والفلسفة).

اختلف العالمان معا في النظر إلى هذا العلم الجديد، لأن كل واحد منهما ينطلق من أسس إبستيمولوجية مختلفة تؤثر ضرورة على التصور النظري استقبالا، فبورس منطقي رياضي فيزيائي، أما دوسوسير فلساني اهتم بالأساس ببلورة علم اللغة متأثرا بعلم الاجتماع خصوصا، فهما اختلفا في تحديد العلامة الموضوع نفسها، فهي ثلاثية عند بورس (مأثول يحيل إلى موضوع عبر مؤول) ثنائية عند دوسوسير (دال أو صورة سمعية و مدلول أو صورة ذهنية).

لذلك يحلو للفرنسيين أن ينعتوا هذا العلم بالسيميولوجيا، معتبرين إياه منتجا فرنسيا، تبعا لدوسوسير، كما يحلو للأنجلوساكسونيين أن يسموه بالسيميوطيقا استنادا إلى بورس، لكن يبقى هذا الاختلاف اليوم شكليا[6].

2-موضوع السيميائيات:

موضوع السيميائيات الأول هو المعنى وأشكال وجوده، وفي هذه النقطة تحديدا تظهر اتجاهات السيميائيات المختلفة، فهناك الاتجاه المنطقي الذي يرى أصحابه أن المعنى خاضع للمبادئ المنطقية بالدرجة الأولى، ليس هذا فحسب بل إنه يرى أن السيميائية أحد العلوم الأساسية، وأنها تشكل أحد أصول المنطق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، ذلك أن ردود أفعال الإنسان واستجاباته النفسية وأنشطته الاجتماعية هي محض دلالات تنطوي على معان ومقاصد وأبعاد ثقافية[7]، وهناك الاتجاه التواصلي الذي يشدد على وظائف العلامة التواصلية التي تربط بين المفهوم وصورته السمعية المتحققة من خلال الصوت إضافة إلى تأكيده حقيقة العلامة الاجتماعية التي تخضع لأنظمة الممارسات الاجتماعية عبر حراك مستمر ومتبادل، فالمجتمعات تقوم بتحوير مفاهيمها وعلاماتها اعتمادا على فاعليتها وقدرتها على إضفاء المنافع والمكاسب، كما تقوم العلامات بفرض محدداتها على الأفراد والمجتمعات فيصبح جميع الأفراد ملزمين بالإذعان لها، أما تبدلها وتغيرها فمنوط بقوى السلطة المختلفة التي قد تكون سياسية أو اجتماعية، أو دينية، أو اقتصادية[8].

3-السيمياء في التراث العربي القديم:

أما الثقافة العربية فانحازت إلى استخدام مصطلح السيمياء لوجود المصطلح ضمن ممارسات العرب القدامى وفضاء معارفهم؛ إذ كان لهم جهود مهمة في هذه المواضيع وقد كان علم السيمياء في بدايته،

يمثل طموح الإنسان اكتشاف إكسير الحياة من خلال إضافة العناصر الكيميائية إلى الذهب، لكن هذه المحاولات التي شهدتها المنطقة العربية وتحديدا في بلاد الرافدين وأرض النيل، في القرنين الخامس والسادس الهجريين باءت بالفشل الذريع، ثم تحول المشروع إلى تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وقد سجل المشروع نتائج إيجابية لكن السلطات الدينية ضاقت ذرعا بالسيميائيين، نظرا لأفكارهم التي تتعارض مع المسلمات الدينية الأمر الذي أدى إلى ملاحقتهم وسجنهم وقتلهم وتعقب فلولهم، مما أدى إلى انتقال المشروع من الشرق إلى الغرب الأوروبي[9].

والسيمياء بمفهومها الرئيس(العلامة)، موجودة في معظم الثقافات البشرية[10]، ويكاد "لا يخلو التراث الفكري لأي شعب متحضر من تصورات سيميائية، و لعل ذلك يتضح أكثر عندما يتعلق الأمر بالتراث العربي، لا سيما وهو تراث قائم في الأساس على تفكير لغوي بلاغي"[11].

وللسيميائية جذور لغوية في المعجم العربي، فهي تتعالق مع حقل دلالي لغوي– ثقافي يحضر معها، حيث إن البحث في الجذر اللغوي لأصول مثل: التسمية والسمة والوسام والسيمياء والسيمياء والعلامة يكشف ثراء المادة المتعلقة بها[12].

وقد تحدثت بعض الكتب العربية التراثية عن مفاهيم قريبة من السيمياء، دللت على الكثير مما نعرفه الآن من مكوناتها، وبأنها دال (Signification) ومدلول(Signified) من خلال ما "شاع عن اللغويين والأصوليين والفلاسفة وفقهاء اللغة العرب أن الأشياء متعددة الوجود، فهي موجودة في الأذهان وموجودة في اللسان وكل وجد آلياته وطبيعته الخاصة[13]، فكان يدلل على وجود المفهوم في الذهن قبل تحوله إلى الكلام (Speech)، ومن ثم وجود الدليل (Index)، وهو المفردة الدالة، ثم المدلول، وهو الموضوع (Object) الذي يعبر عن حالة خاصة تربط بين المفهوم والدليل، بيد أن هذه الشذرات لم يتح لها أن تتطور ضمن رؤية فكرية ناظمة لها.

وعُربَ مصطلح السيمياء بـ"السيميولوجيا" و"السيميائية" و"السيميوطيقا" و"السيمية" و"الرموزية" و"الدلائلية" و"علم العلامات" و"العلامية" وسواها[14].

وقد اقترحت مجموعة من المفاهيم لتوصيف السيمياء في الدراسات النقدية الحديثة دون أن تحيط بجوانبها المختلفة، فهي "مجال واسع جدا لا تملك أي معالجة له أن تكون شاملة... إذ توجد في

السيميائية مدارس فكرية مختلفة، ويغيب بشكل ملفت إجماع المنظرين المعاصرين حول اتساع مجال السيميائية ومفاهيمها الأساسية وأدوات التحليل فيها"[15].

فمن الباحثين من جعل التعريف بها عاما وقد تنبه إلى تعريف (سوسير) للإشارة بقوله: "كنهٌ أو ماهية قابلة للإدراك بالنسبة لمجموعة محددة من مستعمليها، وأنها في حد ذاتها ناقصة المعنى تماما إذا أدركها أحد من غير هذه المجموعة"[16].

وهناك من وصفها بأنها "علم أو دراسة منظمة منتظمة"[17].

وكذلك: علم "يدرس حياة الدلائل و العلامات داخل النسق الإجتماعي"[18].

وجاء انتقاد وصف السيميائية بالعلم نتيجة الإشارة إلى أن مصطلح "علم" مضلل، حتى الآن لا تملك السيميائية مسلمات نظرية أو نماذج أو منهجيات تطبيقية يقوم حولها إجماع واسع"[19].

ليتمتع مصطلح السيمياء، في الثقافة العربية الإسلامية، بدلالية خصبة، فقد خلفت هذه الثقافة أفكارا سيميائية مهمة من الممكن تنظيمها وترتيبها وإعدادها، لتصبح مكونا رئيسيا في النظرية السيميائية المعاصرة، أما مادة هذه الأفكار فمتوزعة في جهود البلاغيين، والفقهاء، وعلماء الكلام، والمتصوفة، ومفسري الأحلام، والفلاسفة والأدباء[20].

هوامش المحاضرة:

1. **عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، دار القرويين، المغرب، 2008، ط1، ص 11.**
2. **هيثم سرحان: الأنظمة السيميائية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2008، ط1، ص 54.**
3. **عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص ص 11.**
4. **محمد بن عياد: مسالك التأويل السيميائي، وحدة البحث في المناهج التأويلية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، تونس، مطبعة التّسفير الفنّي، صفاقس، تونس، 2009، ط1، ص22.**
5. **هيثم سرحان: الأنظمة السيميائية، ص 54.**
6. **عبد المجيد العابد: مباحث في السيميائيات، ص ص 12.**
7. **فريال جبوري غزول: مدخل إلى السيميوطيقا: أنظمة العلامة في اللغة والأدب والثقافة ، دار إلياس العصرية، القاهرة، ط1، ص ص 137-138.**
8. **حنون مبارك: دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ط1، ص ص 72-73.**
9. **هيثم سرحان: الأنظمة السيميائية، ص55.**
10. **آراء عابد الجرماني: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص 22.**
11. **عبد الواحد مرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب: من أجل تصور شامل، دار الأمان، الرباط، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص 30.**
12. **ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (مادة وسم).**
13. **آراء عابد الجرماني: اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، ص 23.**
14. **خليل الموسى: من مصطلحات معجم النقد الأدبي المعاصر، دمشق، 2000، ط1، ص 52.**
15. **دانيال تشاندلر: أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008، ص 22.**
16. **مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة رياض الصلح، بيروت، 1983، ص 520.**
17. **ميجان الرويلي، سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ط3 ، ص 177.**
18. **علي مولاي بوخاتم: مصطلحات النقد السيميائي: الإشكالية والأصول والامتداد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ط1، ص 171.**
19. **دانيال تشاندلر: أسس السيميائية، ص 31.**
20. **هيثم سرحان: الأنظمة السيميائية، ص55.**